عن التقليد، ويقتنع اقتناعاً، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾

(من الآية ٣٣ من سورة لقمان)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

ولأنهم قالوا : ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا خبر هؤلاء فيقول : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ .

والنبأ هو الخبر المهم وله جدوى اعتبارية ويمكن أن ننتفع به وليس مطلق خبر . ولذلك يقول سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النبأ)

كما يقول ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ﴾، كأن هذا النبأ كان مشهوراً جداً، ويقال : إنه قد قيل فى « ابن بعوراء » أو أمية بن أبى الصلت، أو عامر الراهب، أو هو واحد من هؤلاء، والمهم ليس اسمه، المهم أنّ إنساناً آتاه الله آياته ثم انسلخ من الآيات، فبدلاً من أن ينتفع بها صيانة لنفسه، وتقرباً إلى ربه ﴿ فانسلخ منها ﴾ واتبع هواه ومال إلى الشيطان.

وكلمة « انسلخ » دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية لدرجة أنها تحتاج جبروت معصية لينسلخ الإنسان منها؛ لأن الأصل فى السلخ إزاحة جلد

الشاة عنها، فكأن ربنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الآيات فانسلخ منها، وهذا يعنى أن الآيات تحيط بالإنسان كما يحيط الجلد بالجسم ليحفظ الكيان العام للإنسان؛ لأن هذا الكيان العام فيه شرايين، وأوردة، ولحم، وشحم، وعظام. وجعل الله التكاليف الإيمانية صيانة للإنسان، ولذلك سمى الخارج عن منهج الله « فاسقاً » مثله مثل الرطبة من البلح، فبعد أن تضرب الشمس البلحة يتبخر منها بعض من الماء، فتنكمش ثمرة البلحة داخل قشرتها وتظهر الرطبة من القشرة، ولذلك سمى الخارج عن المنهج « فاسقاً » من فسوق الرطبة عن قشرتها، والله عز وجل يقول هنا: ﴿ آتيناه آياتنا ﴾. وكان يجب ألا يغفل عنها، لأن الإتيان نعمة جاءت ليحافظ الإنسان عليها، لكن الإنسان انسلخ من الآيات.

ونعرف جميعاً ثوب الثعبان وهو على شكل الثعبان تماماً، ويغير الثعبان جلده كل فترة، ولا ينخلع من الجلد القديم إلا بعد أن يكون الجلد الذى تحته قد نضج، وصلح لتحمل الطقس والجو، وكذلك حين يتدلق سائل ساخن على جلد الإنسان، تلحظ تورم المنطقة المصابة وتكون بعض المياه فيها، ولو أفرغ الإنسان هذه المياه تصاب هذه المنطقة بالتهاب، أما إذا تركها فهى تحمى المنطقة المصابة إلى أن يتربى الجلد تحتها وتجف وتنفصل عن الجسم، وكذلك نعلم أن الشاة - مثلاً - لا تسلخ نفسها. بل نحن نسلخها، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يس)

فكأن الليل كان مجلداً ومغلفاً بالنهار، والليل أسود، والنهار فيه الضوء، ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف؛ لأن ألوان الطيف : الأحمر، البرتقالى، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلى، البنفسجى، واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية، لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التى تأتى عليه فلا يرتد إلى العين شعاع منها فتراه مظلماً. والأبيض هو مزيج من

ألوان متعددة إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك. وقوله الحق: ﴿ نسلخ منه النهار ﴾ كأن سواد الليل جاء يغلف بياض النهار.

وإذا انسلخ من آتاه خبر الإيمان عن المنهج يقول الشيطان: إنه يصلح لأن يتبعني، وكأن الشيطان حين يجد واحداً فيه أمل، فهو يجرى وراءه مخافة أن يرجع إلى ما آتاه الله من الكتاب الحامل للمنهج، ويزكى الشيطان فى نفس هذا الإنسان مسألة الخروج عن منهج ربنا.

وقلنا من قبل: إن المعاصى تأتى مرة من شهوة النفس، ومرة من تزيين الشيطان وأوضحنا الفارق، وقلنا: إن الشيطان لا يجرؤ عليك إلا إن أوضحت للشيطان سلوكك أن له أملاً فيك، لكن إن اهتديت وأصلحت من حالك فالشيطان يوسوس للإنسان فى الطاعة ويحاول أن يكرهه فيها، والشيطان لا يذهب - مثلا - إلى الخمارة، بل يقعد عند الصراط المستقيم ليرى جماعة الناس التى تتجه إلى الخير، أما الآخرون فنفوسهم جاهزة له. إذن فالشيطان ساعة يرى واحداً بدأ فى الغفلة عن الآيات فهو يلاحقه مخافة أن تستهويه الآيات ثانية، ولذلك لابد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية هل هو من النفس أم من نزغ الشيطان، فإن جاءت المعصية وحدثتك نفسك بأن تفعلها ثم عزت عليك تلك المعصية لأى ظرف طارىء ثم ألححت عليها ذاتها مرة ثانية، فاعلم أنها شهوة نفسك. لكن إن عزت عليك ثم فكرت فى معصية ثانية فهذا من نزغ الشيطان؛ لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة، بل يريدك بعيداً عن المنهج فقط، لكن النفس تريد معصية بعينها وتقف عندها، فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك، فاعلم أنها من نفسك، وإن امتنعت عليك معصية وتركتها، ثم فكرت فى معصية ثانية. فهذا نزغ من الشيطان - ويقول الحق:

﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

(من الآية ١٧٥ سورة الأعراف)

الغاوى والغَوىّ هو من يضل عن الطريق وهو الممعن فى الضلال، ونعلم أن الهدى هو الطريقَ الموصل للغاية، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية يضل أو يتوه فى الصحراء. وهو الذى يُسمى « الغاوى »، ومادام من الغاوين عن منهج الله فالفساد ينشأ منه لأنه فسد فى نفسه ويفْسد غيره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١٧٦)



وهنا أمران اثنان، الرفعة : وهى العلو والتسامى، ويأتى بعدها الأمر الثانى وهو الإخلاد إلى الأرض أى إلى التسفل، والفعلان منسوبان لفاعلين مختلفين.

﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾، والفعل رفع هنا مسند لله. ولكنه اختار أن يخلد فى الأرض. وجاء الأمر كذلك لأن الرفعة من المعقول أن تنسب لله. لكن التسفل لا يصح أن يُنسب لله، وكان كل فعل هو بأمر صاحب الكون. وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج، وحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ ولو شئنا ﴾ أى أنها مشيئتنا. فلو أردنا أن نرفعه كانت المشيئة صالحة، لكن هذا الأمر ينقض الاختيار، والحق يريد أن يُبقَى للإنسان الاختيار، فإن اختار الصواب فأهلا به وجزاؤه الجنة، وإن أراد الضلال فلسوف يَلْقى العذاب الحق، ولمزيد من الاعتبار بقصص القرآن اقرأ معى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأبّ على أن عبداً من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له : ﴿ هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا ﴾ .

وفي هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم . وجاء القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم .

وماذا قال العبد الصالح ؟ لقد عذر موسى وقال :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أي أنك يا موسى لن تصبر لا لنقص فيك، بل لأنك سترى أمورا لا تعرف أخبارها . لكن سيدنا موسى قال له لا : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابرا ﴾ وأصرّ موسى أن يتبع العبد الصالح وأنه لن يعصى له أمرا، واشترط العبد الصالح ألا يسأله سيدنا موسى عن شيء إلا أن يحدثه العبد الصالح . وكان كل ذلك مجرد كلام نظرى، فيه أخذ ورد، وحين جاء الواقع تغير الموقف تماما . بعد أن ركبوا في السفينة وخرقها العبد الصالح، لم يصبر سيدنا موسى بل قال :

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ من سورة الكهف)

وهكذا أثبتت التجربة العملية أن موسى لم يصبر على أفعال العبد الصالح،

وحين ذكره العبد الصالح بما وعد به من ألا يسأل، تراجع موسى، وتكرر السؤال، وتكرر التذكير. إلى أن أوضح العبد الصالح لموسى كل أسرار ما لم يحط به علما وهنا يقول الحق: ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ لماذا؟. لأن مشيئة الله مشيئة مطلقة، يفعل ما يريده، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاءً، لهذا لم يرفعه مع أنه مخالف، لأنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً يثيبه الله عليه. ومن عمل سوءاً يعاقبه، ومشيئته سبحانه مطلقة، ولا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

و بمقتضى مشيئة الله فهو يعذب المذنب بعدله ويثيب الطائع بفضله، وله سبحانه مطلق الإرادة فهو عزيز، وحكيم فى كل فعل.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

و ﴿ أخلد إلى الأرض ﴾، أى أنه اختار أن ينزل إلى الهاوية، رغم أن الحق هدى الإنسان وبين له طريق الخير ليسلكه فيصعد إلى العلو، والحق يقول:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ونخطىء حين نفهم أن « تعالوا » بمعنى « أقبلوا » فقط وهذا فهم ناقص، إنها دعوة للقبول وإلى العلو، لأنه سبحانه وتعالى يشرع لنا حتى لا نلزم منهج الأرض السفلى. بل نرتقى ونأخذ منهج الله الذى يضمن لنا العلو. وكأنه سبحانه يقول: تعالوا وتساموا فى أخذ منهجكم من الله العلى الأعلى وإياكم أن تأخذوا منهجكم مما وضعه البشر ويناقض ما جاء فى شرع الله، لأن فى هذا تسفلا ونزولا إلى الحضيض.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ويقال: «حملت على الكلب»، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده وتنهره، فهذا تفسير لقوله: «تحمل عليه»، أى أنك تحمل عليه طردا أو زجراً؛ لذلك يلهث، وأن تركت الكلب بدون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو أيضا يلهث، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً، وهذه الخاصية فى الكلب وحده، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه.

ونعلم أن الحيوانات لا تلهث إلا إن فزعت فتجرى، لتفوت من الألم أو من العذاب الذى يترصدها من كائن آخر، وحين يجرى الحيوان فهو يحتاج لطاقة، فيدق القلب بشدة ليدفع الدم بما فيه من غذاء إلى كل الجسم، ولابد للقلب أن يتعاون مع الرئة التى تمد الدم بالهواء. ونلحظ أن الكائن الحى حين يجلس برتابة فهو لا يلحظ تنفسه، لكن إذا جرى يلحظ أن تجويف الصدر أو سعة الصدر تنقبض وتنبسط لتسحب «الأوكسجين» من الهواء لتصل به للدم بكمية تناسب الحركة الجديدة، فيحاول أن يتنفس أكثر. ولا تفعل الحيوانات مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجة، لكن الكلب وحده هو الذى يفعلها، جائعا أو شبعان، عطشان أو غير عطشان، مزجوراً أو غير مزجور، إنه يلهث دائماً. ولماذا يشبهه سبحانه بالكلب اللاهث ؟؛ لأن الذى يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً؛ لأنه متبع لهواه، وتتحكم فيه شهواته. وحين تتحقق له شهوة الآن، يتساءل هل سيفعل مثلها غداً ؟ وتتملك الشهوة كل وقته، لذلك يعيش فى كرب مستمر، لأنه يخاف أن يفوته النعيم أو أن يفوت هو النعيم، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن، جائعاً أو غير جائع، عطشان أو غير عطشان.

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

هكذا يكون مصير من كذَّب بالآيات .

وقول الحق : ﴿ فاقصص القصص ﴾ يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً ، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتى سبحانه بلقطة جديدة ، لتعدد ما فى القصة الواحدة من العبر ، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة . ونجد فى القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل ، ومن قصص المبطلين مع المحقين ، ومن قصص المعاندين مع الرسل ؛ لأن القصة أمر واقعى ، والتقنين للمناهج أمر لفظى ، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع ؛ لأن واقع الحياة يعطى القصة القولية حرارة وسخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظرى معزول عن الواقع .

وهكذا بيّن الحقّ سبحانه وتعالى فى هذه الآية ، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه بواسطة الرسل إلى بعض خلقه ، فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب أولاً ، وتوظيف ما علم ثانياً ، وبذلك يرتفع من منطق الأرض إلى منطق السماء . ومن يعطيه الله ذلك المنهج ، ما كان يصح له أن يترك ارتفاعه إلى السماء ، ليهبط إلى مستوى الأرض . وهذا ما يفعله البشر حين يقننون لأنفسهم ، ويضعون نظم الحياة على وفق هواهم ، وعلى وفق نظمهم ، ويتركون منهج الله الذى خلقهم وصنعهم ووضع لهم قانون صيانتهم .

وهذا كلام نظرى له واقع فى ابن « باعوراء » ، هذا الذى آتاه الله العلم ، ولكنه أخلد إلى الأرض ولم يتبع ما علم ، فانسلخ من المنهج كما تنسلخ الشاة من جلدها وقال فيه الحق :

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ومن يريد أن يرفعه الله إلى السماء بالوحى بالمنهج ثم يهبط إلى الأرض نجد

الحق سبحانه وتعالى يمثل حاله بحال الكلب، مع الفارق بين الاثنين؛ لأن الكلب يلهث غريزة. فهو غير مذموم حين يلهث وهو مطرود، ويلهث غير مطرود فهذه غريزة فيه، ولا يذم على هذه ولا على تلك، لكن الإنسان الذى فطره الله على حب الخير وميز غرائزه بمنهج عقلى يصون حركته ما كان يصح له أن يفعل ذلك ولا ينبغى أن تقولوا: وما ذنب الكلب فى أنه يلهث، ويضرب به المثل فى الكفر؟ لأن الكلب يفعلها غريزة، وهو بغير تكليف فيفعل ما يشاء، أما الإنسان الذى ارتفع بفكره وميزه الله بأن يختار بين البديلات ما كان يصح له أن يصل إلى هذا المستوى، ومثل هذا السلوك فى الكلب محمود فيه لأن طبيعته هكذا، وإياك أن تقول: لماذا ربنا يضرب المثل بأشياء وما ذنبها هى؟

والحق - سبحانه - هو القائل عن اليهود:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

هل الحمار حين يحمل أسفاراً يستحق الذم لأنه لم يفقه ما فى الأسفار؟ الجواب لا؛ لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما فى الأسفار، بل مهته أن يحمل ما عليه فقط، وكأن الحق يقول: لا تكونوا مثل الحمار الذى يكتفى من الخير بأن يحمله، ولكن أريد منكم أن تحملوا المنهج وأن تنتفعوا بما يحويه من التشريع. إذن فهذه الأمثلة ليست ذماً للكلب، ولا هى ذما للحمار. إنما ذم لمن يتشبه بهما؛ لأنه نزل إلى مرتبة لم يرده الله لها، وأراد الله المثل فيها بشىء لاتذم منه، ولكنه مذموم من الإنسان.

والإنسان الذى لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة فى الحياة، حتى وإن كان فى نعمة، لأنه معزول عن الله، ومادام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل: أيدوم لى هذا النعيم أو لا يدوم؟ ويعيش دائما فى قلق ورعب مخافه أن يفوت النعيم أو ألا يدوم له النعيم، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبه.

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾

إذن حين يضرب الله لنا مثلاً من الأمثال الواقعية فى هذا الرجل المسمى "ابن باعوراء" ، فسبحانه يعطينا واقعاً لما حدث بالفعل.

أى أن الذى يريد الله أن يرفعه بما علمه من منهج فانسلخ من دينه فهو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، ولستم بدعاً فى هذا ، فالله يريد أن يرفعكم بمنهج السماء وأنتم تخلدون إلى الأرض ، وقد حدث هذا مع ابن باعوراء ، وكلمة "مثل" إذا سمعتها هى من مادة الـ"م" والـ"ث" والـ"لام" ، وتنطق كما يأتى : إما أن تنطقها مِثْل «بكسر الميم وسكون الثاء» ، وإما أن تنطقها مَثَل «بفتح الميم والثاء» ، والمِثْلَ هو المشابه والنظير ، فتقول : فلان مِثْل فلان فى الكرم ، فى العلم ، فى الطول ، فى العرض ، وبذلك أعطيت تشبيه ما هو مجهول للمخاطب بما هو معلوم له.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

أى لا أحد يشبهه فى شيء ؛ لأنه مُنَزّه فى الذات والصفات والأفعال.

وأيضاً نقول : هذا مَثَل هذا ، أى أن فلاناً المشبه به يكون أعلى منه فيما يشبهه به ، لكن الناس لا تعرف ذلك . وإن كان المشبه به ذائع الصيت ؛ بحيث يجرى اسمه على كل لسان ؛ فنحن نقول : إنَّه مَثَلٌ ؛ كقولنا عن الكريم : "هو حاتم" لأن شهرة حاتم فى الكرم جعلته مَثَلاً. والفرق أنك إذا قلت فى فلان إنه يشبه حاتماً فى الكرم ، فقد تكون أول من يخبر عنه ، ولك أن تأتى بواحد له شهرة ذائعة الصيت على كل لسان ؛ فهذا مَثَل ، كأن تقول : مَثَل حاتم فى الكرم ، أو مَثل عنترةَ فى الشجاعة. والمَثَل فى الذكاء إياس ، لأن كل واحد منهم مشهور بصفة ، ولذلك لما مدح الشاعر (١) الخليفة (٢) قال فيه :

(١) أبو تمام (٢) أحمد بن المعتصم

إقدام عمرو [١] (فى شجاعته) فى سماحة حاتم (أى الطائي) فى حلم أحنف (الأحنف [٢] بن قيس وكان مشهوراً بالحلم عند العرب) وفى ذكاء إياس [٣].

وقال رجل من القوم : كيف تُشَبِّهُ الأميرَ بصعاليك العرب ؟ إن الأمير فوق من ذكرت جميعاً .

ما عمرو بالنسبة للأمير ؟!

وما حاتم بالنسبة للأمير ؟!

فقال الشاعر :

وشبهه المدّاح فى الباس والندى
بمن لو رآه كان أصغر خـادم

ففى جيشه خمسون ألفاً كعنتر
وفى خُـزنه ألف ألف كحاتم

أى أن عنده أمثالَ حاتمٍ وأمثال عنترة. فما كان منه إلا أن أسعفته ذاكرته وبديهته ؛ فقال :

" لاتنكروا ضربى لـه من دونه
مثلاً شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقـل لنوره
مثـلا من المشكاة والنبراس

وكأن الشاعر يقول : أنا ضربت بهم المثَل لأنهم أصبحوا المثل المشهور والأمثال لا تتغير .

---

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس اليمن (٢) من سادات التابعين كان شهما حليما (٣) كان قاضى البصرة ويضرب به المثل فى الفطنة والذكاء.

وأنت تقدر في المثل، فقد تقول : فلان حاتم، وحاتم انقضى عمره، لكنه قد صار مثلاً مشهوراً في التاريخ ، أو تقول : "فلان عنتر" ، أو "فلان إياس " ، وفي ذلك يرتقي التشبيه، بأن صار المشبَّه به مشهوراً معلوماً متوارداً على الألسنة وكل واحد يشبه به .

ويُعَرفون المَثَل بأنه : قول شبِّه مورده بمضربه ، أي أنك تشبه الحالة التي قيل فيها المثل أولاً، ومثال ذلك : حينما أرسلَ عظيمٌ من عظماء العرب خاطبةً اسمها "عصام" لتخطب له أمَّ إياس ؛ فقد بلغه أنها جميلة وأنها وأنها ، فقال : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف، فذهبت الخاطبة وخلَّت أم الفتاة بينها وبينها، وقالت لها : يا هذه ، هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض أمرك فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجه وخلق ، وناطقيها فيما استنطقتك به . ثم أرسلت إلى خباء ، ونظرتها كلها وفحصتها فحصاً شاملاً. فلما عادت إلى من أرسلها، وكان ينتظرها في شوق وكأنه على أحر من الجمر ، قال لها : "ما وراءكِ يا عصامُ ؟" قالت : "أبدى المخض عن الزُّبد» أي أن الرحلة جاءت بفائدة.

وأصبح العرب بعد ذلك كلما أرسلوا رسولاً ذكرا أو أنثى أو مثنى أو جمعاً؛ وبعد أن يعود إليهم ويستعلموا منه عن نتيجة رحلته ، فهم يقولون له : "ما وراءك يا عصام ؟ " ، ولو كان رجلاً ، لأن الأمثال لا تغير . وكل شيء يجدي الجهد فيه يقال عنه : "أبدى المخض عن الزبد" . فحين ينجح الولد ويأتي بالمجموع المناسب يقال : "أبدى المخض عن الزبد" .

والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وكانوا قد قالوا : كيف يضرب الله المثل ببعوضة ؛ وقال سبحانه :

﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

لقد فهموا قوله : "فما فوقها" أنها أكبر منها، والمراد غير ذلك؛ لأنه سبحانه ضرب المثل بالأقل؛ لذلك قال : "فما فوقها" من باب فما فوقها في الاحتقار منكم والقلة في الحجم مما تنكرونه ، وهو الضآلة. وحتى تفهم ذلك نسمع أحياناً : فلان مريض . ويرد السامع وفلان فوقه في المرض . ونجد "فوقه" هنا لا تعني المرض الأقل ، بل المرض الأكثر شدة :

﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

والكلام موجه لليهود : أي أنتم يابني إسرائيل مَثَلكم مثل الرجل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، ولقد جاءت لكم في التوراة بشارة بمحمد ، ووصفته بسمات وعلامات ، بحيث إذا رآه الإنسان يعرف أنه الرسول الذي جاء ذكره في التوراة، ويعرفه الواحد منكم كما يعرف ابناً له ، لأنه مذكور لكم بنصه ونعته وشكله وطوله، وعرضه . وكنتم تستفتحون به على العرب . لكنكم امتنعتم عن التصديق بالآيات ، وعندما جاءكم بما عرفتم عنه كفرتم به. وصار مثلكم كمثل الرجل الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها. ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾

وهم بعنادهم وبغيهم وكفرهم قد كذبوا بالآيات الكونية التي يراها البصر ؛ السماء والأرض والشمس ، والآيات المعجزات التي يثبت بها الرسول صدق بلاغه عن الله، وكذلك آيات القرآن التي تحمل منهج الله.

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ وعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان، وأنت لن تحكي الأمر التافه، بل ستحكي ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة ؛ تنتفع بها حركة المجتمع.

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ ، ونعلم أن القرآن قد جاء فيه الأمر بالتفكر والتذكر والتدبر.

والتفكر - كما نعرف - هو عمل العقل فى المقارنات بين البديلات المتنوعة لِيُرَجّح بديلاً على بديل فتُعقلَ به القضايا.

والتذكر يعنى إن غفلت عن هذا فتذكره ، حتى يزيح عنك الغفلة عن القضية المعلومة.

أما التدبر فهو أيضاً بحث عقلي. فلا تنظر إلى واجهة الأشياء ، بل إلى كلية الأشياء من جميع جهاتها بواجهة وجوانب وخلف ، وما ينتج عنها . وعلى سبيل المثال يقال : انظر خلف العبارة ، لتجد المعنى الخفى فيما يقال. والمثال فى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وحين تفكرنا وتدبرنا وجدنا أن معنى "فما فوقها" لا يعنى الأعلى منها فى القوة ، بل الأعلى منها فى الضعف الذى أنكروه . لذلك لا يجب أن تنظر إلى معنى ومدلول اللفظ حسب ظاهره فقط ، بل لما خلف اللفظ ، ومعطياته.

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ أى يتفكرون فى أسلوب توجيه المنهج ؛ لعلهم يؤمنون. وهذه فائدة القصص.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ ﴾

والحق قال فيهم من قبل : إنهم كذبوا بآياتنا ، وضرب لهم المثل بابن باعوراء وكان مشهوراً فى أيامهم. لكنهم فاقوا ابن باعوراء لأنه كان فرداً وهم جماعة ؛ لذلك لا تقل إن فى المسألة تكراراً؛ لأن المثل من قبل كان على فرد واحد، أوتى آيات الله فانسلخ منها ، ولكنهم كانوا جماعة . لذلك فانسلاخهم عن المنهج يجعل موقفهم أشد سوءاً.

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾

و"ساء" أى قَبُح ، وحين نقول : ساء فلان ؛ أى قبح أمره ، ولكن أى أمر من أموره هو القبيح ؟ فنقول : ساء صحةً أى صار مريضاً أو ساء حالاً أى صار فقيراً ، أو ساء خلقاً أى صار شرساً، وأنت حين تقول : ساء، فهذا السوء عام له جوانب متعددة ، ويقتضى الأمر التمييز.

و "ساء مثلاً " أى ساء من جهة المثل ، والمثل فى ذاته لا يسوء؛ لأن الله تعالى يضرب المثل لنا . والمثل إنما يجئ ليبين ويشرح ويوضح. والمعنى هنا : ساء مثلاً حال القوم. أو القوم أنفسهم هم الذين ساءوا . لأنهم حين كذبوا بالآيات ظلموا أنفسهم، فالتكذيب منهم لم يعرقل منهج الله فى الأرض، ولم يعرقلوا بالتكذيب شيئاً فى كون الله تعالى، فالكون بنظامه ونسقه يسير بإرادته سبحانه وآيات الكون سائرة. إذن تكذيبهم بآيات الله لن يضير أبداً فى أى شيء. والخيبة إنما تقع عليهم. وإن كان التكذيب فى الآيات المعجزات فقد بقى ذكر المعجزات إلى الآن. وهم الذين خابوا ، وإن كانوا قد كذبوا بآيات المنهج فهم أيضاً الذين خسروا ولم يصب الآيات الإعجازية أو القرآنية أى شيء . وهم قد ظلموا أنفسهم ومثلهم فى ذلك مثل المريض الذى لم يسمع كلام الطبيب فإنه يسيء إلى نفسه ولن يضر الطبيب شئ، والله سبحانه قد أعطانا المنهج لتستقيم به حركة الحياة، فمن يأخذه ينفع نفسه، ومن لا يأخذه لن يضر الله شيئاً.

هم إذن ظلموا أنفسهم، ومن يظلم نفسه كان هو أول عدو لها ولن يضر الله شيئاً، ولا الرسول، ولا المجتمع.

﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة الأعراف)

وحين تجد معمولاً تقدم على عامله - قاعدة نحوية - فاعلم أن هناك مايسمى بالقصر في علم البلاغة، وقد نقول: "يظلمون أنفسهم" ويصح أن تعطف قائلاً: ويظلمون الناس. ولكن حين نقول: أنفسهم يظلمون، فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم، ويكون الكلام فيه قصر وتخصيص، مثلما نقول: ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾، أي أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وهذه الآية هي الوحيدة التي جاء فيها قوله سبحانه وتعالى: "المهتدي" - بالياء - بينما جاء المولى سبحانه وتعالى بكلمة "المهتد" - من غير ياء - في آيات متعددة عدا هذه الاية:

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الإسراء)

و يقول الحق: ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحديد)

وكذلك تأتي الكلمة بدون "ياء" في قوله سبحانه:

﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾.

(من الآية ١٧ سورة الكهف)

والمعركة الخاصة بقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال أيضاً ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن، وأوضحنا هذه القضية من قبل ولكننا نكررها للتأكيد ولتستقر في الأذهان، لأن هناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادى والمضل، فلماذا يعذبنى إن ضللت ؟ . وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة. ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لا تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت ؟ . إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التى جاءت لك هى مكسب تركته وأخذت المسألة التى فيها ضرر . ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم.

وضَرْبنا من قَبْلُ أمثلةً كثيرة. لنفرق فى هذه المسائل بين المختلفين ؛ لأن الجهة عندهم منفكة. وهم قد ناقشوا مسألة " خلق أفعال العباد " وتساءلوا : مَنْ خلق هذه الأفعال ؟ هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله ؟.

ونسأل : ما هو الفعل ؟. إنه توجيه طاقة لإحداث حدث ؛ فطاقة اليد أنها تعمل أيَّ عمل تريده منها ؛ قد تضرب بها إنساناً أو تحمل بها إنساناً واقعاً على الأرض، أو تربت بها على اليتيم .

إذن ففى اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظة أن تضرب إنساناً ؛ فأى عضلة تحركها حين ترتفع اليد لتضرب ؟. إنك بمجرد رغبتك فى أن تضرب ، تضرب ؛ عكس الإنسان الآلى حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزرار تعمل . وكلها آلات.

وأنت حين تربت على كتف يتيم ، ما هى الأعضاء والأجهزة التى تحركها لتعمل هذا العمل ؟. إذن فالله هو الذى خلق فيك الانفعال للفعل. فإن نظرت إلى ذلك، فكل فعل من الله، ولكن توجيه الجارحة إلى الفعل هو محل التكليف.

إذن فأنت تحاسب لأنك فعلت، لا لأنك خلقت؛ لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار، مثل اللسان فيه طاقة

مخلوقة لبيان ما فى النفس ؛ إن أردت أن تقول بها " لا إله إلا الله " صلحت، وصلحت كذلك عند الملحد أن يقول - والعياذ بالله - لا يوجد إله . واللسان لم يعص فى هذه ولا فى تلك .

إذن فالذى خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله. وأنت توجه الجارحة، إذن فكل الافعال مخلوقة لله، لكن توجيه الطاقة للفعل بالميل والاختيار إنما يكون من العبد. والحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع بالمنهج، ومن يقبل عليه بنيَّة الإيمان، يعينه على ذلك، ولذلك لا يصح أن نختلف فى مسألة مثل هذه، وأن نسأل من خلق الأفعال، بل علينا أن نحدد الأفعال وكيف توجد، وما دور الإنسان فيها؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث، مثل من يريد أن يؤذى إنساناً بيده لكنه يصاب بشلل فلا يقدر أن يرفع يده . ولو كان هو الذى يخلق لرفع يده وآذى بها من أراد، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل.

وعلى ذلك تكون الهدايةُ نوعين : هداية دلالة، وهى للجميع ؛ للمؤمن والكافر؛ لأن الحق لم يدل المؤمن فقط، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به، فمن يُقْبل على الإيمان به ؛ فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة . فيأخذ بيده، ويعينه، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه، ويعطى له طاقة لفعل الخير، ويشرح له صدره وييسر له آمره : وسبحانه القائل :

﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة الأعراف)

فإذا كان الله قد عمّم حكماً ثم خصّصه، فالتخصيص هو الذى يحكم التعميم.

ويقول ربنا عز وجل : إن من شاء هدايته فهو سبحانه وتعالى يعطيه الهداية،

ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدى وهذه معونة من الله، والكافر لا يهتدى وكذلك الظالم، والفاسق؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره، وهكذا يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة. ونقرأ فى القرآن الكريم ما يوضح هذه المسألة، فهو سبحانه يقول:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

والهداية التى كانت لقوم ثمود إنما هى هداية الدلالة، وليست هداية المعونة.

ويقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾

(سورة محمد)

أى أنه سبحانه قد زاد من اختاروا الهداية، بالمعونة وجعل بينهم وبين النار وقاية، والحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

(من الآيه ٥٦ سورة القصص)

أى أنك يا محمد لن تعين أحداً على الطاعة لأن هذا أمر يملكه ربك.

ويقول سبحانه لرسوله:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

أى أنك يا محمد تهدى هدايةَ الدّلالة بالمنهج الذى أنزله الله إليك.

إذن إذا رأيت فعلاً أو حدثا مُثبتاً لواحد ومنفياً عنه.. فاعلم أن الجهة منفكة، والكلام هنا لحكيم عليم. ولماذا يقول الحق سبحانه:

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لأن الحق سبحانه وتعالى حين ينصرف عن معونة عبده، فعلى العبد أن يواجه حركة الحياة وحده بدون مدد من خالقه. ويعيش وحالته كرب، سواء كان في يسر مادي أو في عسر. هذا إن اعتبر أن الدنيا هي كل شيء، فإذا أضيف إلى ذلك غفلته عن أن الدنيا معبر للآخرة، فالخسارة تكون كبيرة حقاً.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وذرأ، بمعنى بث ونشر، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في أول سورة النساء :

﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾

كما يقول الحق أيضا : ﴿ يذرؤكم فيه ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ونعرف أن في الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهي كل ما عدا الإنس والجن؛ لأن كلا منهما في سلك الاختيار، وهم من يقول عنهم ربنا في سورة الرحمن :

﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾

وذرأنا معناها بثثنا ونشرنا وكثّرنا، وكلمة كثير لا تعنى أن المقابل قليل، فقد يكون الشيء كثيراً ومقابله أيضاً كثير، والحق سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

إذن كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط، حيث يقول الحق فى ذات الآية :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

أى هناك كثير يسجدون ويخضعون لله. ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب. وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

فقد يثور فى الأذهان سؤال هو :

هل أنت خالقهم يارب لجهنم. ماذا يستطيعون إذن ؟ ولا شيء فى قدرتهم مادمت قد خلقتهم لذلك ؟

ونقول : لا. ولنلفت الأنظار إلى أن فى اللغة ما يسمى « لام العاقبة »، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عما كنت تقصده وتريده؛ لأن القصد فى الخلق هو العبادة مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ومعنى العبادة طاعة الأمر ، والكف عن المنهى عنه ، والمأمور صالح أن يفعل وألا يفعل ، فالعبادة - إذن - تستدعى وجود طائع ووجود عاص ، وأضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه وتعالى : يأتى لك من يروى لمحة من سيرة إنسان ويقول لك : لماذا يقف منك هذا الموقف العدائى ، أليس هو الذى أخذته معك لتوظفه؟ فترد عليه : « زرعته ليقلعنى » . هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلعك ؟ لا . ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا .

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار . لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه ، فمنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة ، ومنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه « لام العاقبة » ، أى ما صار إليه الأمر غير مرادك منه ، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾

(من الآية ٧ ومن الآية ٨ سورة القصص)

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً ؟ لا ، لأن زوجة فرعون قالت :

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا ﴾

(من الآية ٩ سورة القصص)

فقد كانت علة الالتقاط - إذن - هى أن يكون قرة عين ، لكنه صار عدواً فى النهاية ، وهذا اسمه - كما قلت - لام العاقبة .

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار ، فى قوله الحق :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ﴾

لأن علة الخلق فى الأصل هى العبادة ، والعبادة تقتضى طائعاً وعاصياً ، فالذى يطيع يدخل الجنة ، والذى يعصى يدخل النار ، ولله المثل الأعلى ، أذكركم بالمثل الذى

ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإن شئت أقول لك عليهم وأحددهم . لم يقل العميد أو المدير ذلك لأنه يتحكم فى إجابات الطلبة ، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه ، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

يعنى أننا نشرنا وبثثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، وهم من يعرضون عن منهجنا ، ثم يأتى الحق بالحيثيات لذلك وهى أولا :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثانياً :

﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثالثاً :

﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولقائل أن يقول : إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم ؟ . ومادامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم ؟ وكذلك مادامت الآذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون ؟ . ونقول : لا ، لم يخلقهم الله للعذاب ، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم ، وصارت عقولهم لا تفكر فى شىء غيره وتخطط فقط للحصول على الشهوة ، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها ، وكذلك الآذان . وكل منهم يرى غير مراد الرؤية ، ويسمع غير مراد السمع .

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذن . . أن فقه القلب هو فهم القضايا التى تنتهى إليها الإدراكات . ونعلم أن الإدراكات تأتى بواسطة الحواس

الخمس ، فنحن نعرف أن الحرير ناعم باللمس ، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم ، ونعلم أن العسل حلو الطعم بالذوق .

إذن لكل وسيلة إدراك ، وهى من المحسَات ، وبعد أن تتكون المحسَات يمتلك الإنسان خميرة علمية فى قلبه وتنضج لتصير قضية عقلية منتهية ومسلماً بها .

وكلنا يعرف أن النار محرقة ؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه ، فيعرف أن النار محرقة ، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى . إذن فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكاتها الحواس الظاهرة ، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء بالحمل . وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العضل ؛ لأنك حين تحمل شيئا قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً .

وحينما ترى واحداً من قريب وواحداً من بعيد ، فهذه اسمها حاسة البعد ، وكذلك حاسة البين وهى التى تميز بها سُمك القماش مثلاً .

كل الحواس - إذن - تربى المعانى عند الإنسان وحين تربى المعانى فى النفس الإنسانية تتكون القضايا التى تستقر فى القلب .

ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾

والفقه هو الفهم ، ويصير الفهم قضية مرجحة انتهى إليها الاقتناع من المرائى والمحسّات ، لكنّ هؤلاء الكافرين لا يرون بأعينهم إلا هواهم ، وكذلك لا تسمع

آذانهم إلا ما يروق لهم ، فلا يستمعون إلى هدى ، ولا يلتفتون إلى الآيات التى يستدلون بها على الخالق فتعيش قلوبهم بلا فقه ، فهم إذن لهم قلوب وأعين وآذان بدليل أنهم فقهوا بها وسمعوا بها ورأوا بها الأشياء التى تروق لانحرافهم .

ويصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء فيقول :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾

وهنا وقفة لإثارة سؤال هو : ما ذنب الأنعام التى يُشبه بها الكفار ؟ إن الأنعام غير مكلفة وليس لأى منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو آذان تسمع بها آيات الله . هى فقط ترى المرعَى فتذهب إليه ، وترى الذئب فتفر منه ، وتتعود على أصوات تتحرك بها ، وكافة الحيوانات تحيا بآلية الغريزة ، ويهتدى الحيوان إلى أموره النافعة له وإلى أموره الضارة به بغريزته التى أودعها الله فيه ، لا بعقله .

والإنسان منا لا يبتعد عن الضر إلا حين يجربه ويجد فيه ضرراً . لكن الحيوان يبتعد عن الضر من غير تجربة بل بالغريزة ، لأن الحيوان ليس له عقل وكذلك ليس له قدرة اختيار بين البديلات ، وفطره الله على غريزة تُسَيّرهُ إلى مقومات صالحة ، ومثال ذلك : أنه قد يوجد الحيوان فى بيئة ما ، ويعطى الله له لوناً يماثل لون هذه البيئة ليحمى نفسه من حيوانات أقوى منه .

ومثال آخر : نحن نعلم أن الحيوان مخلوق لينفع الإنسان ، ولابد أن يتناسل ليؤدى ما يحتاج إليه الإنسان من ذرية هذا الحيوان ويمارس الحيوان العملية الجنسية كوسيلة للتناسل وليست كما هى فى الإنسان ، حيث تصير فى بعض الأحيان غاية فى ذاتها ، بجانب أنها وسيلة للنسل . ولذلك نجد كثيراً من ظواهر الحياة المتعلقة بالإنسان قد تعلمها من الحيوان مثلما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

إذن فالغراب مَهْدِيّ بغريزته إلى كل متطلباته، ولذلك نجد من يقول : كيف نشبه الضال بالأنعام؟ نقول : إن الضال يختلف عن الأنعام فى أنه يملك الاختيار وقد رفع فوق الأنعام، لكنه وضع نفسه موضع الأنعام حيث لم يستخدم العقل كى يختار به بين البدائل. وبذلك صار أضل من الأنعام، وكلمة « أضل » تبين لنا أن الأنعام ليست ضالة، لأنها محكومة بالغريزة لا اختيار لها فى شيء. لكن الكفار الذين ذرأهم ربنا لجهنم من الجن والإنس، لا يعرفون ربهم، بينما الأنعام، والجمادات والنباتات تعرف ربها لأن الحق يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

إذن فالأنعام تعرف ربنا وتسبحه وتحمده. وفى آية أخرى يقول المولى تبارك وتعالى :

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾

(من الآية ٤١ سورة النور)

وعلى ذلك فكل الجماد - إذن - يعلم صلاته وتسبيحه.

ولذلك قصصنا قصة من قصص العارفين بالله حين يجلسون مع بعضهم البعض كوسيلة تنشيط إلى غايات وأهداف سامية. والعارف بالله من هؤلاء الصالحين يستقبل الأحسن منه فى العبادة بالضحك، أما الأحسن منه فى أمور الدنيا فيستقبله « بالتكشير »، وقال واحد منهم لآخر : أتشتاق إلى ربك؟ فرد عليه : لا.

تساءل الآخر : كيف تقول ذلك؟.

قال له : نعم. إنما يُشْتَاقُ إلى غائب.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولا تظنن أن الضلال لعدم وجود منهج، أو لعدم مُذكِّر، أو لعدم وجود مُنْذر أو مُبَشِّر. بل هى غفلة منهم، فالأمور واضحة أمامهم، لكنهم يهملونها ويغْفُلون عنهاَ.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ نقول: إنه لا يوجد لغير الله اسم يوصف بأنه من الحسنى، إن قلت عن إنسان إنه « كريم »، فهذا وصف، وكذلك إن قلت إنه « حليم »، وكلها صفات عارضة فى حادث، ولا تصير أسماء حسنى إلا إذا وصف الله بها. فأنت - مثلا - لك قدرة تفعل أفعالاً متعددة، ولله قدرة، لكن قدرتك حادثة من الأغيار، بدليل أنها تسلب منك لتصير عاجزاً، أما قدرة الله تعالى فلها طلاقة لا يحدها شىء. فهى قدرة مطلقة. وأنت قد تكون غنياً، لك غنى، ولله غنى، لكنّ ثراءك محدود، وأمَّا غنى الله فإنه غير محدود.

إذن الأسماء الحسنى على إطلاقها هى لله، وإن وجدت فى غيره صارت صفات محدودةً مهما اتسعت.

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحسنى.. تأنيث لكلمة « الأحسن » اسم تفضيل، وهى الأسماء الحسنى فى صلاحية الألوهية لها، وصلاحيتها للألوهية. وحين تقول عنه سبحانه: إنه « رحيم »، فهذا أمر حسن عندى وعندك لأننى أنظر إلى رحمته لى، وأنت تنظر إلى رحمته لك. وحين تقول: « غفار »، فأنت وأنا وكل من يسمعها تعود عليه.